ل.م.د / س2

م 2

الاقتصاد القرطاجي

أ- الفلاحة:

اقترن التوسع القرطاجي في المجال الإفريقي بالتوسع والازدهار الزراعي، الذي كان هدفا رئيسا له، وقد ثمنت المصادر التاريخية التجربة الفلاحية القرطاجية، التي كانت جوهرتها كتاب الفلاحة لماغون (ق 3 ق.م) المترجم بأمر السيناتو الروماني، وترجمه ولخصه الإغريق أيضا ، والذي كان مؤلفا من 28 كتابا، و ذكر لعبد ملقرت (هملكار) كتابا آخر في معناه.

لقد غطى المجال الزراعي القرطاجي المناطق التي توسعت فيها، كالوطن القبلي، وسهول منخفض وادي مليان، ومجردة الأسفل، الذي كان المجال الممول للمدينة، وقد وصفه بولبيوس بعد معاينته سنة 146 ق.م بأنه: " يغطي احتياجاتها اليومية –يعني قرطاجة- لكن يضطرها لضمان احتياطي ضروري من المؤن أو احتياجاتها أثناء الحروب إلى اعتماد موارد المناطق الليبيين والنوميديين". وفي العموم اعتمد مجال ملكيات القرطاجيين خاصة في الوطن القبلي على الغراسات المتنوعة، و تربية المواشي، وكانت ملكية الأراضي الواسعة راجعة لأغنياء الأرستقراطية الموجهين للسياسة الاقتصادية للدولة.

ومن خلال المصادر يمكننا تمييز خصائص الفلاحة القرطاجية في: أهمية السكن الريفي، الذي يسمح لنا بتقدير حجم الملكيات، باعتبارها متوسطة الامتداد في الغالب، وعملية الاستغلال الزراعي المكثف، كالاستغلال المكثف للزياتين والكروم والأشجار المثمرة. ويظهر أن الإضافة القرطاجية في هذا المجال تكمن أساسا في تقنيات الإنتاج، ودرجة التكثيف، أكثر من إدخال أنواع زراعية جديدة، وفي هذا يذكر" بلنيوس" تسعة أنواع من التفاح البوني. كما أن مقاييس ماغون لغراسة الزياتين قريبة من التصورات المعاصرة الأكثر علمية.

وتظهر أهمية استعمال العبيد في الزراعة، إلا أن ذلك لم يكن واسعا، إذ ظهر استغلال مباشر للقرطاجيين لأراضيهم، دفعا من الساسة؛ لتخفيف العبء السكاني عن المدينة. كما أنه يبدو أنه قد ازداد التوسع الزراعي بعد الحرب البونيقية الثانية، إذ توجه الجيش إلى توسيع غراسات الزيتون بعد انحسار المنطقة الترابية القرطاجية، وذلك نحو الشمال الشرقي والوسط الشرقي التونسي. كما يبدو أن هذه

الطفرة الزراعية قد أنشأت أرستقراطية جديدة متوسطة، وأن الأرستقراطية التجارية لم تدخل المجال الزراعي بكثافة إذ لم نشهد وجود أراضي " لاتفنديا".

ب- التجارة:

كانت قرطاجة إمبراطورة تجارية بالدرجة الأولى؛ فقد ورثت الطبيعة الكبرى للاقتصاد الفينيقي، حتى أضحت كما يقول " بولبيوس" أغنى مدن العالم بفضل تجارتها. وقد ارتاد تجارها كل موانئ المتوسط، بل وخرجوا إلى موانئ المحيط والجزر البريطانية، على الرغم من المنافسة الإغريقية والإتروسكية، فكانت تجارتها بحرية محضة.

ومع ذلك كان لها تجارة برية داخلية تعوزنا المعلومات بخصوصها، والمؤكد أنها ربطت مدنها شبكة برية قوية للتجارة، فقد ربطت مع بلاد السودان علاقات تجارية لعب فيها "الغرمنت" (الجرميون) دور الوسيط، شكل فيها العاج وجلود الحيوانات وريش النعام والذهب أهم مجلوباتها، وكانت " غدامس" نقطة تلاقي خطوط هذه التجارة، وكانت مراكزها الأخرى مستوطنات لبدة الكبرى وطرابلس وسبراطة.

1- التنظيم التجاري:

- العملة:

رغم الأهمية الاقتصادية التجارية للعملة في تنظيم المعاملات وضبطها، إلا أنه من اللافت أن قرطاجة - رغم تحكمها في تجارة المعادن - قد تأخرت في ضرب العملة، بل إن مستعمراتها بصقلية قد ضربت عملاتها قبلها؛ قيل سبب ذلك هو تعودها المتاجرة مع مناطق لا تعتمد العملة بل التبادل التقايضي، أو أنها لعبت في الأساس دور الوسيط في تجارة المناطق المتعاملة بالعملة ذات منظومات الضرب المختلفة، فضلا على أنها اعتمدت في مدنها على نظام تبادل متراوح بين العملة والمقايضة يعرف بنظام وزن المدن الثمين.

- السياسة التجارية:

ارتبطت هذه السياسة بمصالح العائلات المتنفذة اقتصاديا من الفئات الأرستقراطية، والتي ربطت مع مثيلاتها في المتوسط علاقات شخصية وتجارية، وقد تولت هذه الفئة طبيعيا دفة الحكم، فوجهت سياسته وفق فكرها الخاص، والتي كانت معالمه الرئيسية: استخدامها القوة عند الاقتضاء والاضطرار لحماية مصالحها التجارية الاقتصادية، لكن دون صبغة عدائية هجومية، فهي في الأساس تسعى لتنظيم وحماية مصالحها لا الفتك بأعدائها. تطبيقها سياسة احتكار المبادلات التجارية مع بعض المناطق، كما

في سردينيا وأيبيريا، في حين أبقت صقلية منطقة تجارية مفتوحة. اختلاف سياستها الاقتصادية بالداخل القرطاجي عن مستوطناتها، إذ منحت لها حرية تجارية كبيرة خاصة صقلية، في حين كانت تحد من نشاطها التجاري الداخلي أثناء الأزمات، إذ رأت أن تجعل من مستوطناتها الخارجية مناطق للفضاء التجاري المفتوح بين مختلف شعوب المنطقة، لتبقي يدها متحكمة في هذا الفضاء.

كما سعت لتأسيس المستوطنات وتوفير البنية الأساسية لازدهارها التجاري، فوسعت المجال الموروث عن صور ببناء المستوطنات الجديدة وإقامة الرحلات البحرية، وإنشاء صناعة سفن قوية وتقنية بناء الموانئ كالمنحوتة في الصخر.

كما اتجهت لتنظيم العلاقات التجارية المتوسطية تلافيا لزعزعتها؛ بإقامة معاهدات واتفاقيات سياسية ذات أسس اقتصادية، سعيا لحماية مجالاتها الحيوية القديمة والجديدة. واتجهت أيضا لاستعادت بعض السياسات الخاصة لبعض مستوطناتها، كما فعلت –فيما ذكر أرسطو- بعد استيلائها على "سردينيا" من قطع كل الأشجار المثمرة ومنع المحليين من إعادة غراستها. وقدا استشكل هذا المؤرخون:

فرأى " غزال" وغيره، أنها أرادت بذلك منع منافسة الجزيرة لانتاج الزيوت والخمور القرطاجية. ورفض هذا " قرا" (*M.GRAS*) لأنه يعني أن قرطاجة قد بلغت من الاكتفاء الذاتي في هذا المجال ما جعلها تتجه للتصدير، كما يعني أن المدن السردينية قد بلغت ذلك الحال كذلك؛ لكن الواقع الأثري يظهر أن هذه المدن السردينية بقيت لفترة طويلة تستورد هذه المواد من مدن " أتروريا". ويرى أنما تلك السياسة القرطاجية نابعة عن إرادة لتحقيق نوع من التخصص الزراعي بين جزيرتي سردينيا وصقلية، فقصرت الأولى على الحبوب والثانية على الخمور والزيوت. كما أرادت أيضا من وراء ذلك أمرين آخرين، أحدهما ذي بعد اجتماعي يهدف إلى تقوية الشريحة الارستقراطية التجارية النازلة (القرطاجية) المحتاجة إلى أراض عقارية، ومنع السكان المحليين من تحقيق ثروة وظهور أرستقراطية محلية منافسة. ثانيها ذي بعد اقتصادي، عمدت فيه إلى إنشاء مراقبة تامة على اقتصاد الجزيرة لاحتكار التجارة معها؛ وقد دلت المعاهدات المبرمة مع روما على ذلك إذ نصت على وجوب حضور ممثل عن الإدارة القرطاجية عند إبرام الصفقات التجارية. ويبقى لهذا الكلام بعد نظري موقوف على صحة هذه الرواية.

2ـ المبادلات التجارية:

شملت المبادلات التجارية القرطاجية كل شعوب المتوسط، بل تعدته إلى شعوب محيطية، واختلفت نسبة التبادل التجاري معها على حسب قربها وسعة تجارتها وسوقها.

لقد كانت **صقلية** مجالا تجاريا مركزا لقرطاجة، ارتكزت المبادلات معها على الموارد الغذائية والنسيج، وقد كان تصدير الخمور والزيوت نحو قرطاجة من وراء ثراء مدينة **"أقرقنت"** (AGRIGENTE)، كما شمل التبادل التجاري **سرقوسة** التي كانت بها جالية تجارية بونية مذكورة، علها تاجرت بفخارها الكورنتي الشهير.

كما كانت **سردينيا** مجالا تجاريا قرطاجيا مهما، استقرت فيه عائلات فينيقية عملت فيه بتجارة الفخار ذي الطابع الكورنتي والأيوني واللاقوتي والإتروسكي في مدنها " بيتيا" (BETHIA) وكراليس (Cagliari) وخاصة فولتشي (Vulci) وشرفيتيري (Cerveteri).

كما ربطت مع **الإتروسك** منذ القرن 7 ق.م علاقات تجارية، فاهتموا بالزيوت المعطرة أكثر من الخمور، وبفخارها، وكانت أولى النواحي ارتباطا معها بمعاهدات سياسية ذات طابع تجاري، أشاد بها أرسطو في كتاباته.

وأسست حركة تجارية مع بلاد **الإغريق**، وكان الفخار الكورنتي والأتيكي أهم أنواع الفخار المتوسطي، وتولت قرطاجة بنسبة كبيرة ترويج هذا المنتج في المتوسط.

أما **مصر**، فتظهر اللقى الأثرية مكانة مهمة من صناعاتها خاصة ذات الأحجام الصغير كالعجلات والتمائم من الأثاث الجنائزي القرطاجي. واستبعد " فوركوتير" (J.VERCOUTTER) أهمية الخط البري والبحري الإفريقي في هذه التجارة. ورجح الخط البحري عن الطريق كريت إلى صقلية. كما رجح أن هذه التجارة كانت بيد الإغريق لا القرطاجيين، وخالفه موسكاتي (MOSCATTI) فرأى أنها كانت بيد القرطاجيين لبروز التأثيرات الفنية المصرية على سردينيا أكثر من الإغريقية، وهي معقل قرطاجي.

أما **روما**، فيرى "مورال" أن المبادلات بينهما مرت بمرحلتين: أولى قبل الحرب البونيقية حيث كانت قرطاجة أكبر شركاء روما التجاريين، للتواجد الكبير لمنتجات " الورشات ذات الأختام الصغيرة" الرومانية، وثانية بعد الحرب البونيقية الأولى حيث ظلت واردات قرطاجة من الفخار الروماني أهم الواردات خاصة الفخار الكمبنياني، ومرحلة أخرى بعد اندلاع الحرب البونيقية الثانية حيث شهدت نوعا من الانطواء القرطاجي وانتشار الفخار القرطاجي المحلي.

أما جنوب **إيبيريا** إيبيزا، فكان الارتباط معها عائدا بالدرجة الأولى لمعاهداتها، وذكر ديودور الصقلي أنه بدأ بظهور مستوطنة إيبيزا (Ibiza) سنة 654 ق.م وانتعاش المستعمرات الإيبيرية مع تزايد الطلب الأشوري على المعادن. لكن ضعف هذا المجال التجاري بسبب الصراع مع سكان منطقة

" تارتسوس"، وسقوط صور 573 ق.م، وتراجع الطلب على المعادن خاصة الفضة منها، وظهور المنافسة الإغريقية في الجنوب الفرنسي بإنشاء " ماساليا" و" إمبورياس". وأنهت قرطاجة مرحلة الضعف هذه خاصة بعد سيطرتها على المسالك التجارية بسيطرتها على صقلية وسردينيا. وزاد من تحكمها المعاهدات المبرمة مع روما التي نصت على دخول إيبيريا في نفوذها التجاري المطلق. ومع هذا لم تعدم الاعتناء بالزراعة في إيبيريا حتى عرفت طفرة أدت إلى تصدير منتجاتها بها.

3ـ البحرية القرطاجية:

تعتبر أشهر وأقدم بحرية في العصور القديمة، فمنذ الألف الثالث ق.م أخذ المصريون يقصدون سوريا ولبنان ليأتوا بخشب الأرز لبناء سفنهم المسماة " لبنت" على اسم المدينة الفينيقية" كبن" أو جبيل. وكانت السفن الجبيلية تحمل المميزات الرئيسية للمراكب الفينيقية، فهي زوارق كبيرة ذات طرفين مرتفعين، ومجهزة بدرابزون متحرك على الأرجح، تسير بواسطة الأشرعة والمجاديف. وجعل داخلها واسعا لنقل السلع والحمولات، وشمل تجهيزها على سارية مزودة بعارضة وبأربعة أشرعة مربعة معلقة بحبال، وبها سلالم توصل إلى مختلف أجزاء السارية. وتتألف الدفة من مجدافين كبيرين مثبتين في المؤخرة.

أما المراكب الحربية فمختلفة الهيئة، فمؤخرتها مرتفعة، بينما تنتهي مقدمتها بنتو يلامس سطح الماء ليحطم به مراكب الأعداء، و تسير بصفين أو ثلاثة صفوف من المجاديف، وهي متميزة خاصة الحربية بالصغر والسرعة والقدرة على المناورة.

لقد ورثت قرطاجة بحرية صور ومعها شهرتها، بفضل مراكبها، وخبرة بحارتها الذين اهتدوا في البحر دون بوصلة بل بالدب الكبير. وكانت بحريتها الرسمية تحمي أثناء السلم منافذ الأقاليم الخاضعة للنفوذ القرطاجي التجاري من القراصنة، وتحرس القوافل التجارية وتشترك في الحروب البحرية.

وقد راوح الأسطول القرطاجي الرسمي ما بين مائة إلى مائتي سفينة، وكثيرا ماكانت تفقده أثناء حروبها، وسرعان ما كانت تعيد بنائه في أوقات قياسية. وقد كان لها ميناء صناعي مزدوج، خارجي لاستخدام السفن التجارية، وداخلي والذي كانت به أرصفة تتسع لـ 220 سفينة حربية، منها 160 إلى 170 حوضا يستوعب سفنا خمسينية المجاديف، وبه مبنى مراقبة مرتفع لدرجة تكفي لرؤية إلى مسافة بعيدة في البحر، وبها مصانع السفن الضخمة يعمل فيها أشهر حرفي العصور القديمة. كل هذه العوامل مكنتها من السيادة البحرية التي كانت عنوان سيادتها التجارية في غربي المتوسط وشرقه. انتهى